اللواء الشهيد
محمد عمران

الوُجود التاريخي للأمة العربية



تونس
1985

الوجود التاريخي للأمة العربية

بقلم
اللواء محمد عمران

بيروت 1968

يعرف التاريخ بعراقة الامة العربية وقدم انتسابها الى حضارات الانسانية ، ومساهمتها الدائمة ، في كل دفعة جديدة ، من تيارات التاريخ المعروفة منذ اقدم العصور . فلقد شاركت اقوام متتابعة ، تنحدر من الارومة العربية ، المتاصلة تاريخيا وجغرافيا في الجزيرة العربية ، أحد ينابيع العنصر الانساني الاساسية ، شاركت في أقدم صور التعبير الحضارية ، التي قامت في منطقة الشرق الادنى ، قبل نزول الاديان السماوية . ثم تابعت مشاركتها بالمادة البشرية والابداع الفكري ، والتنظيم السياسي ، في جميع انبثاقات المجتمعات ذات الرسالات الدينية . وكانت اخر موجة يعربية حاملة لعقيدة دينية ، هي موجة العرب المسلمين الذين اندفعوا عبر حالة من التفجر الاجتماعي الفكري ، الى اقامة اكبر حضارة في العالم القديم ، بعد حضارة اليونان والرومان ، امتد سلطانها السياسي الى جميع حدود العالم المتمدين المعروفة ، وتخطتها الى مجاهل جغرافية وبشرية أخرى غير معروفة .

وكانت ثقافتها الدينية والعلمية محور الفكر والابداع طيلة عصور متوالية ، اكسبت الانسانية استمرارا خلاقا لجهود المعرفة والتنظيم الاجتماعي والعلاقات السياسية والاقتصادية .

واذا كانت الحضارة العربية قد امتدت قدما ، الى ما قبل الاسلام بزمان بعيد ، الا ان مرحلتها الأخيرة التي حددت بدايتها منذ ظهور الاسلام او ما قبله بقليل ، قد ابرزت اكمل تجربة لها ، اتصفت بوحدة العقيدة ، وقيام الدولة الكبيرة الشاملة ، وازدهار العلوم والثقافات المتنوعة ، وتولد ظروف رقي اجتماعي واقتصادي ، كان من اعلى نماذج الرقي المعروفة في العصور الوسطى .

ولقد اعتاد المؤرخون ان يقسموا هذه الحضارة الى ثلاثة ادوار رئيسية : هي : الدور الاسلامي الاول ودور الاستقرار الاول والازدهار ثم دور الانحلال والانحطاط . ويقدمون عادة الى العصر الاول بالحديث عن الجاهلية ، وأحداثها التاريخية الرئيسية القريبة من عصر ظهور الاسلام . ويجعلون في الدور الثاني ، كلا من الدولتين الأموية والعباسية ، ودول الاندلس . ثم يحددون بدء الانحطاط بسقوط الخلافة العباسية في بغداد بعد الغزو التتري ، وانتقال هذه الخلافة فيما بعد الى الاتراك العثمانيين ، وسيطرة هؤلاء سيطرة سياسية مئات عديدة من السنوات ، حتى عصر جديد على العرب ، دعي بالنهضة الحديثة .

والواقع فان تاريخ المجتمع العربي قد خضعت ظروفه المختلفة الى ايقاع هذا التطور الكياني العام . ففي مرحلة الجاهلية السابقة قليلا على الاسلام كان اهم طابع للمجتمع العربي آنذاك ، التخلخل والتبعثر السكاني ، على امتداد جغرافي واسع شاسع ، ويتبع هذا التخلخل ـ الذي سيظل عاملا هاما في التكوين الاجتماعي حتى عصرنا الحاضر ـ يتبعه تجزؤ في السلطة السياسية ، التي كانت لم تزل في طور السلطة العشائرية الاولية . فلم تكن ثمة اطارات محددة تشمل التجمعات القبائلية المتناثرة حول الواحات وطرق المواصلات الاساسية ، والمتنقلة وراء الخصب القليل في الصحراء اللامتناهية . فالارض لم تدخل ضمن مفهوم الوطن . والوطن لم تحكمه دولة . فلا رابطة بالمعنى الحديث ، ولا رابطة قومية كذلك . ولكن عرب الجاهلية مع ذلك ، لم يعيشوا على الروابط العصبية في شكل التجمع العشائري فحسب . اي انهم لم يحددوا وحدة القبيلة او الارومة القبائلية الاصلية على اسس رابطة النسب والدم ، كما يخيل عادة للباحثين . فلم تكن لديهم مفاهيم مادية واضحة عن اصالة الدم . بل ربطوا دائما بين اصالة الدم ورفعة الامجاد والاخلاق ، التي تتجلى بها قبيلة او جيل سابق من اجيال القبيلة . ثم اصبح الانتماء الى هذا الجيل ، هو انتماء لنوع من التفوق المعنوي . وكانت رموز هذا التفوق هي معايير الفروسية من تفاخر وتفاضل بالشجاعة والكرم ، ومجموعة القيم البطولية التي تتضمنها فضيلة المروءة كما اعتقد بها العربي الجاهلي ، ولم يعدل منها الاسلام الا بالقدر الذي تتعارض فيه فضيلة التواضع المطلوبة من العربي المسلم امام حقائق الالوهية ، ومقاييسها العليا . الا ان خلاصة الاخلاق العربية ألفت مؤونة الممارسة الثورية الجديدة ، التي احتاجت اليها مرحلة

الا ان علاقات العصبية القبائلية ، ونظم القيم الاخلاقية التي افرزتها ، كانت تتجه كلها الى تاكيد الوحدة العضوية للقبيلة مقابل القبائل الاخرى · وكان الصراع على مواطن الزرع والخصب ومصادر المياه وطرق التجارة اساسا ماديا يوميا ، لعلاقات المجتمع القبائلي ، ومحركا دائما للحروب والمشاحنات ، ومثارا لتقاليد الاخلاق والنزعات والثارات ، وما يترتب عليها من تكوين مجتمع حي حركي ، اشبه بمجتمع حربي ، تحكمه علاقات الفروسية وتسوده الاهتمامات باصول الحياة المادية الاولية ، ولكنه يظل مفتقرا دائما الى الاطار السياسي الشامل الموحد لهذه الاشكال الاجتماعية ، المنغلقة على ذاتها ، المتناحرة فيما بينها ، المحرومة من قاعدة ثابتة في الارض ، ومن نظام ثابت في المعيشة الاقتصادية ، ومن عقيدة شمولية ، ترد على تساؤلات العقل الانساني ، وتقدم حلولا لمشكلات الفكر والممارسة الخلقية والاجتماعية المضطربة ·

فكان على نخبة القبائل العربية الاقرب الى الحضارة ، والى الاتصال بتيارات العالم المتمدين حولها ، كان عليها ان تجسد ، بين الفينة والفينة ، نوازع هذا القلق اللاشعوري الذي يعاينه مجتمع الرعي والترحال والغزو ، فكانت هذه القبائل الاكثر تقدما ووعيا ، والاغنى مالا ووسيلة معاش ونفوذا سياسيا ، تحاول ان تعقد الاحلاف فيما بينها ، وتنظم ما يشبه العقود الاجتماعية لانشاء ثمة سلطة سياسية ، اعلى من سلطة كل قبيلة على حدة · وفي الوقت نفسه كان قادة الرأي فيهم ، وهم الشعراء غالبا ، يعكسون في اشعارهم هموم الوعي العربي آنذاك · ويسعى بعضهم الى التفكر في مستوى اعلى من هذا المفهوم ، فيثيرون مسائل فلسفية تكشف عن نزوع نحو يقين عقلي ، يكون اساسا لبناء مجتمع جديد ، تسوده وحدة حقيقية وتنظمه ارادة جماعية نحو تغيير شامل لظروف المعاش وظروف العلاقات القبائلية السابقة ·

وفي الوقت نفسه كان الاطار الخارجي الذي يحيط بمثل هذا الكيان الاجتماعي الجاهلي المضطرب يمارس مجموعة من التحديات السياسية ، التي كانت تتغلغل احيانا الى صميم مجتمع الصحراء والبوادي · كان ذلك الاطار تؤلفه تخوم دول ثلاث كبرى ، اهمها اثنتان تحيطان بعنق الجزيرة العربية الممتد نحو الشمال ، وهما دولة الروم من الشمال والشمال الغربي ودولة الفرس من الشمال والشمال الشرقي ، ودولة الاحباش جنوبا ·

والتاريخ يحدثنا عن قيام دولتي الغساسنة والمناذرة حول عنق الجزيرة

العربية ، غرباً وشرقا ، كقلعتي دفاع عن الامبراطوريتين الهرمتين ، الفارسية والرومانية ، وكسد بشري وسياسي يقف ضد موجات الدفع المتتاليه ، من الاقوام العربية التي كانت تضخها الجزيرة نحو الشمال ، كما اعتادت ان تفعل منذ فجر التاريخ ، ولكن هاتين الدولتين العربيتين ، لم تمارسا الوظيفـــة السياسية الاولى المطلوبة منهما فحسب • بل ان طبيعة تركيبهما من مـادة القبائل العربية ذاتها ، قد ساعد عرب الجزيرة على تغذية التواصل وتعميق التفاعل مع العالم الخارجي ، كما جعل عرب الحجاز خاصة يعون حقيقـــة الحصار الاقتصادي والبشري الذي تفرضه الامبراطوريات الشمالية المشرفة على الانحلال • وكان لتدخل الفرس والروم في السياسات القبائليــة حتــى صميم الجزيرة العربية ، اثره الفعال في خلق التحدي والاستجابة الطبيعيـــة المنتظرة ، فحفلت الحقبة السابقة على ظهور الاسلام بمحاولات الصمود امـام التدخل الاجنبي ، وباحداث نموذجية عن التمرد والثورة على ارادات القــوى الخارجية •

هكذا ، كانت حوافز التغيير تحدد طبيعة النزوع التاريخي الاجتماعي العام الذي وضع حداً لضياع الجاهلية والتمهيد لظهور الدعوة التوحيديــة الكبرى ، عن طريق الاسلام ، والخروج من حصار الدول القديمـة الهرمـة ، والانسياح العربي العالمي الجديد ، لخلق نموذج دولة كبرى جديدة ، بحضارة وقيم ونظم اجتماعية واقتصادية غيرت اسس الحياة القديمة ، ومهدت لظهور الحضارة العلمية ، التي قدر للغرب ان يضطلع بمهماتها الاساسية في حيــن تراجعت الثقافة العربية ، بعد ضياع استقلالها السياسي ، الى عهود الركود والنضوب •

وليس من شك فان التغيير الذي اتى به الاسلام ، كان مرتبطا اشـد ارتباط بجميع تلك الحوافز والنوازع التي عاناها الوجدان العربي ، من طموح الى وحدة فكرية عليا تنتظم القبائل العربية ، ومن اطار سياسي حيوي ينظم قدرات الامة المبعثرة ، ويرتفع بها الى مستوى القيم ، المؤسسة لاصالـــة الاخلاق العربية الموروثة ، ومن ارتقاء عقلي اجتماعي الى مستوى الدعـــوة التي تغير الانسانية ، وتخطي حدود القوميات والعنصريات القديمة •

وبدا واضحا ان الوعي العربي في تلك الحقبة ، كان يبحث عن الصورة الفكرية ، التي تستطيع ان تصوغ تطلعاته الروحية ، وتؤلف المثال مقابل الواقع التجزيئي المتردي ، التي كانت تعيش في بحرانه خلايا الامة الطافحـة بالامكانيات المكبوتة • وما ان جاء الاسلام بهذه الصورة الفكرية الموحدة حتى اتضح الانقطاع بين تخلف الواقع والمثال • فانبثقت قوى الثورةالعقائدية لتغيير الواقع وتحقيق المثال الذي اخذ طريقه الى الحقيقة بالايمان ووحـدة طلائع الدين الجديد •

وهكذا فان الفتوحات الاسلامية التي شملت جميع انحاء العالم المتحضر انذاك كانت أول ظاهرة غزو حربي عرفها التاريخ ، تقوم على اساس الدعوة العقائدية ، والتغيير الروحي والدينيوي الشامل لأسس الحياة ، والمساواة الفعلية بين الامم ، والغاء الاحقاد والتنافر فيما بينها ، وتوحيد اكبر مجموعة من الشعوب تحت راية المثل العليا التي تحملها الدعوة العربية الاسلامية ، من اجل تغيير واقع الانحلال العام الذي كانت تعيش عليه دول العالم القديم أنذاك • ولقد نجح العرب ولا شك في تحقيق جوهر تلك الدعوة ، عندما استطاعوا ان يعمموا رسالتهم على شعوب العالم ، وان يحققوا ثورة في العقيدة والسلوك والنظام الاجتماعي ، وان ينشئوا ثقافة جديدة متجانسة ، تتخطى اصول الثقافات السابقة ، وتتجاوز الحدود الجغرافية والعقلية والعقائدية لشعوب العالم القديم ، وتؤلف هكذا اول وحدة حضارية عالمية يكون أساسها الولاء للعقيدة وليس للعنصر ، وللفكر وليس للمصالح الضيقة ، وللتساوي بين البشر والامم على أساس الانتماء الروحي وحده ، وتنظيم الولاء ضمن تشريعات اجتماعية ، كانت في عصرنا تؤلف واحدا من اعظم آمال الكفاح الانساني نحو المساواة والتقدم والسلام •

فالفتوحات العربية جعلت القوة في خدمة الرسالة ، وقضت على مفهوم الغزو والاجتياح البربري الذي عانت منه شعوب الحضارات السابقة • والفاتح العربي هو اول فاتح يساوي بين حقوقه ، وبين حقوق المنهزم ، ما أن يستجيب المنهزم لدعوة الثورة الجديدة • ولقد كانت الاستجابة شمولية عميقة خلال بضع عشرات من الاعوام ، بحيث أن أمما بكاملها انخرطت في التيار العقائدي الجديد ، وتفاعلت ثقافاتها مع مثل الحياة العقلية والاجتماعية التي حملها الفاتح العربي، وما أن مضت حقبة قليلةمن الزمن حتى تضاءلت الفوارق بين الفاتحين الاوائل وبين الامم الداخلة الى رحاب الحضارة الثائرة الجديدة وراحت تمارس دورها في التفاعل والعطاء والتطوير لا فرق بينها وبين أصحاب الدعوة الاصليين •

وفي حين اخلص العرب الاوائل في تحقيق مجتمع المساواة بين عدة شعوب ، وجمعوا على صعيد واحد بين عدة ثقافات ، فان ردود الفعل على سلطتهم السياسية راحت تأتيهم تحت اقنعة فكرية وعقائدية مختلفة ، ما لبثت ان زرعت بذور الانقسامات في هيكل المجتمع الكبير • وتولد عن كل ذلك واقع جديد ، برز من خلال جملة تناقضات راحت تنمو وتتضخم في اتجاه يعاكس منطلقات العقيدة الاولى ، ويتغلب شيئا فشيئا على مجموعة المثل العليا الاولى التي حركت اجيال المسلمين الاوائل •

وعلى ذلك فان الفتوحات العربية ، التي شكلت آخر موجة ، دفعت بها الجزيرة العربية الى العالم من حولها ، ووصلت الى تخوم الصين شرقا ، والاندلس غربا والى سواحل افريقيا وآسيا الجنوبية الغربية ، هذه الفتوحات جاوزت شكل الغزو الخارجي من شعب لشعب او شعوب اخرى • واستطاعت ان تبني كيانا اجتماعيا ضخما ، تضاءلت فيه الفروق العرقية والمذهبية والاقتصادية ، وسادته اطارات من التوحيد والتدقيق ، ممت على اذابة الخلافات وتحقيق التفاعلات المبدعة بين الجماعات الداخلة في دين انساني موحد للاهداف والانظمة المعاشية والروحية •

واذا ما انحسر الطابع العربي عن الحدود البعيدة لتلك الامبراطورية العقائدية الكبيرة فيما بعد ، الا انه بقي يشمل وطنا فسيحا هو العالم العربي الراهن ، وشعبا موحد العقيدة واللغة والاخلاق ، صمدت وحدته العميقة هذه في وجه النزاعات التجزيئية السياسية ، في عهد انقسام الدولة العربية وقاومت الغزو البربري ، والاحتلال العثماني ، ثم الاحتلال الاستعماري منذ أواسط القرن الماضي ، وما زالت تقاوم مختلف اشكال التسلط الاستعماري وصولا الى الغزو الصهيوني المعاصر •

وخلال تطور الحضارة العربية الاسلامية ، تكاملت اعظم تجربة تاريخية للامة العربية في العصور الوسيطة • ولقد شملت هذه التجربة أشكالا عالية من النظم السياسية في ذلك العصر ترافقها ابداعات متنوعة في حقول العلوم والمعارف ، شكلت أساسا لعصور الاختراعات والتقدم العلمي الراهن • ومن ناحية أخرى فلقد خضع تطور هذه التجربة الفذة الى ايقاع حيوي اجتماعي جعل من العرب في مرحلة الفتوحات الاولى طليعة عقائدية للشعوب الاخرى ، وعندما انقضت هذه المرحلة المثالية الصافية ، وظهرت مشكلة السلطة والصراع القبائلي عليها ، فان الدولة الأموية التي حكمتها ظروف انشاء الدولة الامبراطورية ، قد وجدت نفسها تسير على خطى الامبراطوريات السابقة المنقرضة سواء في شكل السلطة ، وفي احتكارها من قبل عائلة واحدة أو في اسلوب العلاقات الاوتوقراطية مع الفئات الشعبية الاخرى المحكومة •

وهكذا تبلورت عوامل التناقضات في أول تجسيد عادي ضخم ، وهو تحول دولة العرب من سلطة العقيدة وممثليها من الخلفاء الراشدين الأوائل ، الى دولة ملوك واباطرة ، لا تؤلف العقيدة بالنسبة الى أسيادها ، الا أدوات شكلية فرغت من مضمونها الفكري وخضعت لقانون تحكم القلة القوية بالكثرة

المجردة من اية مشاركة فعلية في تقرير المصير العام ، كما كـــان شـــأن الاندفاعات الاسلامية الاولى ·

وبالمقابل فان المجتمع العربي قد عاني ابان العهد العباسي مختلـــف المشكلات ونماذجها التاريخية التي يمكن أن يواجهها مثل هذا الكيان السياسي الثقافي الضخم ، بمجموعاته المتعددة من الامم ، وانماطه المتنوعة من التفـــكير والتمذهب ، والتكون الاقتصادي ، والتشيـــع السياسي الدينـــي ، خاصـــة بعد أن عاد الانفصام والتناقض الى ما بين وحدة المثل العربية الاسلاميـــة وظروف الواقع الحضاري المغرق في النفعية والخاضع لآلية الرفاه ، وما يتبعه من انقسام طبقي وعقلي ، وضياع الشعور بالعدالة الموضوعية ، وبالتالي زوال الحرية ·

فان المجتمع العربي الذي قام في ظل الحضارة العربية ، خلال العصور العباسية كان يتألف في قاعدته ، من أوسع دائرة جماهيرية ، اشتملت عـــلى العرب والشعوب الاسلامية والمجاورة لها ، سواء منها التي امتزجت بالفاتحين الاوائل على أرض عربية ، أو تلك التي بقيت تعيش على أرض أوطانهـــا الاصيلة في المشرق والمغرب والفت هذه الكتلة البشرية الجبارة ذات التوتر الحضاري العالمي المتقدم ، أكبر طاقات صناعية ، انتاجية واستهلاكية زراعية وتجارية ، ذات شكل من رأسمالية التبادل ، واقطاعية الانتاج ، وفعـــاليـــة النقل والمقايضة ، لم تعرفها الامبراطوريات الاقل اتساعا والادنى ثـــروة ، من قبل ·

وبالمقابل فان ازدهار هذا النوع من اقتصاد التجارة الرأسمالية ، والانتاج الاستهلاكي ، وشموله لجميع أقطار الامبراطورية العربية آنذاك ، قـــد بـــعث على جملة ردود فعل طبيعية ، تعبر عن أهدافها الاجتماعية المكبوتـــة لـــدى الجماهير ، من خلال تزايد الفرق والنزعات ذات المحتوى السياسي ، والشكل الديني ضد سلطة الطبقة العليا المالكة لعوامل السيادة ، سياسيا وثقافيـــا واقتصاديا · ولقد فرخت هذه النزعات في الهيئات الاكثر فقرا ، والابعد عن هيكل المجتمع الخاضع للنفوذ العربي ·

وهكذا بدأت انقسامات هذا الهرم ، من أسس مادية طبقية ، وسياسية قومية اتخذت صورة الصراع الشعوبي المرير الذي راح ينخر في جسم الامة ، ويحطم قنوات حيويتها ، ويحولها الى اشكال من البغضاء والتناحر والصراع

العقيم .

ان الانقسامات السياسية الاقتصادية لدى جماهير الدولة العربية الكبرى ، والتي عبرت عن نفسها من خلال الخلافات الدينية تارة ، والخلافات العنصرية القومية تارة أخرى ، قد اودت بحيوية الحضارة العربية واجهضت امكانيات الكشوف الفكرية والعلمية ، التي أوحت بها مقدمات كثيرة غنية من الابداع في شتى ميادين المعرفة .

ومنذ أن فقدت الدولة العربية وحدتها السياسية ، وضمر الدفق الحضاري من كيانها الكبير ، دخل التاريخ العربي في عصور الظلمة والانهيار . وتتابعت على الامة صور الاحتلال الشعوبي والتجزئة المرضية والتدهور في شئون الفكر والابداع . وعلقت أخيرا بجسد الامة أقوام التتر ثم الترك ، لتمتص منه بقية قوة وصمود . فخضعت بذلك أوطان العرب لاطول فترة من الخمول والانحلال ، والاحتلال الاجنبي . ولم تستطع أن تستيقظ الا على ضربات الفاتحين الغربيين الجدد . جاؤوها بثمرات علمهم ، وقوة اساطيلهم ، ونوازع جشعهم الراسمالي . فلم تكد طلائع الامة أن تصحو على العالم المتقدم من حولها ، حتى سقطت أوطان العرب مرة ثانية فريسة الاقتتال الاستعماري منذ أواسط القرن الماضي .

غير أن اليقظة العربية الحديثة فجرت طاقة الصحو والتمرد . فتتابعت سلسلات الانتفاضات والثورات من مغرب الوطن العربي حتى مشرقه . واتصف الربع الثاني من القرن الحالي خاصة بمرحلة الصراع الشعبي المباشر ضد قوى الاحتلال للاستعمار الاوربي . الى أن استطاعت بعض الأقطار الفوز باشكال من الاستقلال الوطني . وبذلك بدأت مرحلة جديدة من الكفاح العربي ، توكزت حول التحرر الكامل من مختلف أشكال الاخضاع الاستعمارية والتبعية لمصالح الاستعمار الجديد . فأخذت طلائع الشباب تطرح شعارات ايجابية تتلخص في التحرر السياسي الكامل والتقدم الاجتماعي ، والتوحيد بين الاقطار المجزاة .

وخلال هذه المرحلة ، انطلق التاريخ الحديث ليقظة عربية شاملة ، تطور فيها المجتمع العربي اقتصاديا وسياسيا وفكريا ، وواجه بالمقابل مختلف عقبات التخلف في ذاته ، وأساليب القهر والزجر الخارجي وقامت محاولات الثورة ، بصور متباينة من الممارسة ، تعجل بخطوات التحرر والتقدم .

وكلما استطاع العرب أن يحققوا خطوة على طريق هذه الأهداف ، تنبهت القوى الاجنبية لخطر قيام وطن عربي جديد موحد يأخذ بأسباب الصناعة الحديثة ، ويمارس حرية كاملة في حياته السياسية ، ويحقق وحدته القومية ٠

ان تجربة الامة العربية خلال عمر تاريخها المغرق بالقدم ، يقدم للثوري العربي المعاصر أعمق النماذج واصدقها ، عن مختلف المشكلات والآمال ، وطرق الممارسة ، وانماط الابداع والتخلف الحضاري ، تفيده في فهم حاضره واستكشاف معالم شخصيته القومية الفنية ، وتزوده بثقافة التجربة التاريخية ، التي تضع الأسس الواقعية لاصول النهضة المعاصرة ٠ فمن العبث أن نفصل حالة المجتمع العربي الراهن عن جذوره التاريخية ، وارتباطاته العضوية بحصيلة تلك التجربة ، ومدى اندماجها في طبيعته الحيوية المستمرة، وتاثيرها على مختلف ظواهر التطور وردود الفعل فيه على تحديات اليقظة الشاملة ، والدخول الى عصر التكنولوجيا والتخطيط العلمي المادي ٠

ولذلك كان على كل دارس لهذا المجتمع بهدف الكشف عن بغيته الخفية وتطويرها الى وضع التحرك والنمو بسرعة نمو العالم الحديث من حولنا ، كان عليه أن يعيد النظر في التاريخ العربي ، وان يكشف ايقاعه الحضاري ، بصرف النظر عن كل ما قيل في تفسيره بصورة مسبقة لا تخلو أحيانا من التجاهل أو المبالغة ٠

فالعرب الذين يحاولون أن يمسكوا مرة اخرى بزمام مصيرهم ، لا يمكنهم ان يتحرروا من ذخر التراث الضخم المتقادم الى أعمق عصور التاريخ ٠ فان أمة نشأت جذورها مع نشأة جذور الحضارة الانسانية ذاتها لا تستطيع أن تنفصل عن متابعة رسالتها على ضوء مثاليتها التاريخية كما لا يمكن للانسانية ان تتجاهل تجربتها الخصبة الحافلة ٠

وان تجربة العرب التاريخية هي تجربة الصراع الانساني ما بين طموح الفكر الجماعي لتغيير صورة واقع ، وما بين العقبات المادية والظرفية، التي تحول هذا الطموح بالتدريج عن مستوى المثل الى مستوى التعامل مع الأشكال والقوالب الفارغة من مضمونها الفكري الحيوي الاول ، الذي يحرك الجماعات البشرية ، ليصبح الصراع للمثال فيما بعد ، صراعا لتحكم

القلة النفعية بالكثرة الضعيفة المسلوبة الارادة والحرية •

فالدورة الحضارية الكبرى التي مثلتها ثورة الاسلام ، بدات بنخبة الطليعة المؤمنة بوحدة العقيدة وتطابقها مع السلوك ، في مواجهة واقع تغيير وتشكل حسب صورة المثل ثم ما لبث أن دب فيه الانقسام ، الى أن انتهت الدورة بسيطرة الصفوة المادية المتحكمة بدلا من الطليعة السابقة • فالتهمت حضارة هذه الدورة شتى أشكال الانقسامات ، من انقسام ديني ومذهبي، وفلسفي عقائدي ، والانقسام شعوبي وعنصري وسياسي ، وانقسام رأسي داخل المجتمع الواحد ، ما بين طبقاته المستغلة والمستغلة •

والثورة العربية الحديثة ليست سوى محاولة لاعادة الوحدة الشاملة لهذا الجسد المتحلل، الذي ورثته الطلائع من عهود الانحطاط ورواسب الحضارة السابقة المنقضية • واذا كانت محاولات الممارسة الثورية حتى اليوم قد برهنت على عودة الوعي بالانفصام ما بين واقع التحلل الكامل في بنيان الامة وبين مثال الوحدة ، الا أن خيبات هذه الممارسة قد دلت بالمقابل ، على أن الطلائع الثورية لم تزل فاقدة لجوهر الممارسة القادرة على التغيير ، وهو وحدة العقيدة النابعة من صميم معاناة الامة الواقعية ، على ضوء الخبرات الثورية وظروفها الموضوعية •

البنية الاجتماعية للأمة العربية

ان كل محاولة لتغيير شروط واقع ما ، تتجاهل الكيان الاجتماعي لهذا الواقع ، وتضرب صفحا عن صورته كما يحددها العلم ، وتكشف عنها وسائل التحليل الموضوعية ، هذه المحاولة سيكون مصيرها الفشل ، ولن تتعدى حدود الدعاية والتبشير • واذا ما أتيح احيانا لدعاتها أن يمسكوا ببعض وسائل التنفيذ ، كان عملهم مجرد لصق لحلول جاهزة مجردة بمادة لا تنطبق عليها ، كمن يطبق قوالب التماثيل على تماثيل أخرى ، بغير أشكال الاولى وحجومها • فالنتيجة هي تصدع القالب ، وانفراط المادة • فالمجتمع العربي

ما زال واقعا مجهولا من قبل رواد الثورة والتغيير على أرضه ، ولذلك فلقد اهتم هؤلاء دائما بتحديد الشعارات ، واهملوا دائما ساحة التنفيذ ، وأرضيتها ، وما تحفل به من مؤسسات لها كل حقيقة الواقع واستمراره وتعقيده • فان رفض الواقع لا يعني أبدا تجاوزه بالخيال • ولكن التحدي التاريخي هو في القدرة على الكشف عن حقائق هذا الواقع ومعالجتها بأساليب التغيير الواقعية هي أيضا •

ان الحديث عن اعادة الوحدة الى كيان المجتمع العربي المتحلل بمختلف عوامل التجزئة والتفكك ، ينبغي أن يتوجه أولا الى الكشف عن العناصر المضادة لهذه الوحدة ، عن حقيقة الانفصال ، وواقع الانفصامات الكيانية المختلفة فيه • فالاطار العام الذي يتبدى من خلاله كيان هذا المجتمع ، هو اطار التبعثر في المكان الكبير الشاسع ، والتخلخل في الصيغة السكانية وهذا التحديد الاولي كانت له آثاره الخطيرة دائما على تثبيت نوع من الانفصام العضوي المادي داخل التجمعات البشرية وساعدت الى حد بعيد على تنفيذ مخططات الانفصامات السياسية فكلما تضاءل توتر الوحدة الفكرية ، وخمدت حركات التجاذب والاندفاع بين تجمعات الامة في أقطارها الواسعة ، كلما تهيأت الشروط المساعدة لبلورة حدود سياسية بين هذه التجمعات ، وبروز فئات انعزالية ، تفيد من ضعف التجمع للتسلط عليه ، وتستثمره سياسيا واقتصاديا • وخلال مئات السنين من التباعد الجغرافي ، وانعدام التواصل البشري ، وتفشي أنماط الاقتصاد الابتدائي وفقدان الامان والاستقرار ، فلقد استقرت فجوات مكانية وعضوية ونفسية بين قطاعات الامة الواحدة وراحت تنمو نموها السلبي التخريبي ، مع استفحال أمراض التخلف والجهل ، وسيطرة دورة الحياة الغريزية الفقيرة ، مع الجدب في الفكر والروح والمماوسة الخلقية • وكلما تلاشت مقومات الوحدة الفكرية الثورية في عصور الانحطاط والتبعية والاحتلال الاستعماري ، كلما فقد الجسم الواحد دمه الواحد • وراحت خلاياه تتابع انقسامات نحو الاضعف والاكثر انكماشا

والاقل حجما • فقامت صحارى من الانقطاع النفسي والحياتي اليومـــي ، فوق صحارى الرمال والجدب والخلاء • فتجزؤ الارض الى أوطان ، تبعــه تجزؤ الوطن الواحد الى أقطار ، والقطر الى قطاعات شمالية وجنوبية شرقية وغربية • وحتى المدينة الواحدة ، انقسمت الى أحياء ذات أبواب مغلقـــة • وأعطي الانقسام الى الاحياء عناوين شتى ، حسب الدين والغنى والفقـــر ، والعنصر وسواه • وأما الارياف فلقد بقيت كميات مهملة مفرقة في عزلتهـا ، تابعة لأسيادها من الاقطاعيين ، متباعدة متنافرة فيما بينها حسب تضـــارب مصالح الأسياد أنفسهم • ولقد صاحب كل ذلك انكماش في الكتلة البشرية ، وتضاؤل في عدد السكان ، الى درجة يجعل الوطن شبه فضاء خال الا مـــن واحات مبعثرة متنائية • فاذا ما هبط المستعمر الغربي سواحل هذا الوطن، وتغلغل في فيافيه ، الفى امامه عناصر التفكك الجغرافي والديمغرافي السكانـــي والاجتماعي ، ماثلة في صورة الامة وفي خلفيتها ، في وجودها البشري ، وفـــي وجودها التجمعي والترابطي • فكشف الصورة وعناصرها وعواملها ، وراح يغذيها بشتى أساليب العلم والدهاء ، حتى استفاق جيل الثورة على تجسيد رهيب في الانفصال السياسي ، تدعمه من ورائه شتـــى عوامل الانفصامات الاعمق الاخرى •

ان العلوم الاجتماعية تقرر أمام هذه الصورة المؤسفة ، حقائق كثيرة ، لم يعرها جيل الثورة أي اهتمام • من هذه الحقائق ان عدد سكان المجتمـــع العربي في مختلف أصقاعه هو أقل بكثير مما يمكن أن يستوعبه وطن هـــو أقل ساحة وغنى بعشرات المرات من الوطن العربي الكبـــير الحالي • وان الكثافة السكانية في الاقطار هي كذلك لا تتناسب أبدا مع اتساعه وامكانياته الاقتصادية • وأكثر المدن ليست سوى قرى كبيرة • والارياف شبه خاليـــة تقريبا • والسهول والصحاري مقفرة ، والجبال والسواحل ، وكل ما يبعد عن المدن التقليدية ، لا يؤلف حضورا بشريا اجتماعيا ، ولا يشارك في حيـــاة القطر الا ضمن حدود بسيطة ثانوية • وحتى في بعض الاقطار ذات الكثافـــة السكانية العالية كمصر مثلا ، فان هذه الكثافة ليست هي كذلك الا بالنسبة لامكانية المعيشة الابتدائية حول النهر ، شريط الحياة الوحيد يخترق أرضا هائلة هي سكن للرمال والرياح فقط •

وما يقال عادة عن ارتفاع نسبة الولادات في المجتمع العربي ، باعتباره واحدا من مجتمعات التخلف ، ان هو الا اخفاء بالمقابل لنسبة الوفيات الهائلة في أطفاله ، التي تجتاح أحيانا أكثر من نصف أطفال البيت الواحد · والناجون من أطفال البيت العربي تغتالهم وسطية الاعمار المنخفضة انخفاضا مريعا · فهي متوسطية الانسان الذي يموت غالبا في أوج شبابه ، مادون الخامسة والثلاثين · ان الاحصاءات تقول ان متوسط عمر الانسان العربي هو دون الخامسة والثلاثين ، أي ان أكثر من نصف الجيل مقدر له أن ينقضي من المجتمع قبل نضج الاربعين ·ثم يأتي عامل الهجرة الخارجية ، ليؤلف نزيفا بشريا دائما منذ مطلع هذا القرن ، من البيئات الاكثر تقدماً والاكثر تفاعلا مع مقومات الحياة العصرية · فتبدأ بهجرة الفقراء ذوي الامكانيات والمطامح لتنتهي في أيامنا هذه بهجرة العقول وأصحاب الخبرات العلمية الى البيئات الاوربية والاميركية · في حين تدأب منذ أوائل هذا القرن بعض الاقوام غير العربية على أرسال هجرات من خارج الوطن العربي الى داخله · وتمارس هذه الهجرات أنواعا من التعضيات المتصلبة في جسد الامة · فتزيد من حدة ظاهرة الاقليات في بعض الاقطار كسوريا ، والعراق ، والخليج العربي ،والمغرب، وأقطار الجنوب العربي · وتؤلف هذه التعضيات المتصلبة بؤرا لتفريخ نوع آخر من الانعزال والنشاط المعاكس لحركة اصهار الامة في البوتقة التحديثية الوحدوية الجديدة · وتقيم حواجز بشرية في وجه حركات التداخل وتعيق هكذا أهم عوامل اعادة بناء وحدة الامة العضوية ، ألا وهو التجانس الروحي والثقافي · ففي حين تتداعى أجزاء المجتمع الى الاندماج ، فان الاقليات العرقية العنصرية تنكفىء أكثر على أروماتها ، ويزداد وعيها بخطر الذوبان · وتأتي اسرائيل كأعلى تكريس منظم لبلورة أقلية عنصرية داخل كيان الامة ، وممارسة شتى نشاطات التقنية الحديثة ، لانعاش مختلف الانفصامات العنصرية الاخرى بل مد هذه الانفصامات الى كل نوع آخر قابل للانقسام والانعزال ، كالتجزئة الطائفية والدينية ·

ان تكريس ظاهرة التيارات العنصرية داخل الكيان العربي ، تزرق من حين الى آخر بزرقات منشطة ، وتكتسب انتصارا بعد آخر ، حتى يصل بها أخيرا الى حد المطالبة بتأسيس الكيانات السياسية الخاصة بها · ان اقتطاع لواء اسكندرون والحاقه بدولة أجنبية ، تركيا ، نهائيا ، وغزوه بالعنصر التركي ، كان هو أول حلقة منظمة في سلسلة ، ليست اسرائيل

الا احدى حلقاتها الكبرى ، وكذلك تسير خطوات متلاحقة اخرى من أجل بناء وطن للاكراد ما بين شمال العراق وسوريا ، ويقابلها محاولات لاقتطاع أقطار من الخليج العربي والحاقه بايران • وفي افريقيا العربية ، تجري محاولات مماثلة لاقتطاع جنوب السودان ، وتغذية نزعات الانعزال لدى بعض البربر في المغرب العربي • وفي لبنان تكاد تلتقي جميع اشكال ظاهرة التيارات الانعزالية ، من عنصرية وطائفية ، لتكرس انماطا عنيفة من التصدعات القومية داخل هذا القطر الذي يمثل واقعه صورة نموذجية عن واقع التخلف التجزئي العربي ، بدون معالجة أساسية علمية لمواجهة تحديات الانفصام داخله •

***

ومنذ أن دب التحلل في الكيان العربي عادت التجمعات البشرية الى شكل وحداتها الاولى ، وهو شكل الانغلاق في القبيلة • وحتى عندما تضاءلت رابطة الدم ، فان الاستقرار في المدن والقرى قام على أساس عائلي لا يخلو هو أيضا من عصبية منغلقة ، هدفها الدفاع عن مجرد الوجود لأفرادها ضد تهديدات التجمعات الاخرى ، واما الريف وخاصة منه المناطق المتاخمة للصحاري والبوادي ، فقد ساده التجمع العشائري • وقامت بين العشائر نزاعات دموية مستمرة على الارض والمرعى ، كانت افضل طريق لتسرب الانظمة الاقطاعية مع الاحتلال التركي • وهكذا خضع الريف العشائري لاقطاعيات كبيرة رهيبة ، وخضعت المدن لابناء العائلات الاقطاعية ، التي كانت تربطها غالبا صلة الدم بالاتراك العثمانيين ، او صلة الاحلاف باقوامها • وعندما بدأ عصر النهضة ، ودخلت الاوطان العربية تحت سيادة الاستعمار الغربي ، فلقد نشأت انقسامات جديدة داخل المدينة ، انتعشت بسبب نشاط التجارة الحديثة وتنوع اشكالها• فتألفت بذلك بدايات للطبقة التجارية واصحاب المهن الحرة وبدأت الوحدات الاجتماعية المنغلقة تنفتح على بعضها البعض بالتدرج • وحدث تداخل بين المرحلة العشائرية والاقطاعية مع التصاقات من بعض ملامح النظام الرأسمالي الجديد • وكان للنهضة الفكرية والتعليمية اثرها الواضح في بناء وحدة آمال آلام جديدة وعاها المتعلمون وحاولوا ان يضعوا لها اهدافا سياسية قومية ، تمثلت في الدعوة الى التحرر من الاستعمار والوحدة العربية الشاملة • غير ان روابط الوحدات المنغلقة لا يمكن القضاء عليها بسهولة • ولذلك فان وحدة الوعي التبشري لدى اجيال المتعلمين الاوائل ، لم تستطع ان تغير من اشكال الحياة الاجتماعية الاساسية وبقيت تقاليد الانكفاء والعصبية العشائرية والطائفية ، وفوقها الخصومات الطبقية الجديدة ، بقيت كل هذه العوامل

مستمرة نشيطة ، تمارس آليتها الواقعية تحت غلافات من التقاليد والأخلاق والاعراف الموروثة ، المتاصلة في نفسية المجتمع العربي المتخلف .

ولقد كان لهذه الظروف الموضوعية أثرها السلبي على تطور المجتمع العربي المعاصر . ففي حين انشغلت طلائع من الطبقات المتوسطة المتعلمة ، من ابناء المدن والعواصم خاصة ، في الممارسة الوطنية والثورية ، فان البنية العميقة للكيان الاجتماعي ظلت بعيدة عن التاثر بموجات التحرر على صعيد عملي حقيقي . وظهرت مجموعة من المتناقضات الحادة ، ترجع الى هذا الجذر في الانفصام الجديد ، بين موجات التحرر على السطح ، وجمود جذور البنية الاجتماعية التقليدية على حالها في الاعماق . ان هذه المجموعة من المتناقضات جوفت ظواهر العمل الوطني والثوري ، وساهمت في تقويض صيغه من الداخل . والغت اعمق سبب عضوي لتهلهل المؤسسات الثورية ، وهي على مستوى الشعب ، وهي على مستوى الحكم .

ان تلك التجمعات البشرية المنغلقة فكريا وسلوكيا ظلت تتبع أشكالا من انماط الاقتصاد الابتدائي . وجاءت عصور النهضة لتضيف اليها انماط الاقتصاد الحديث ، بشكل تراكمي ، لم تستطع ان تقضي على الانماط السابقة ، كما لم تستطع ان تكيف المجتمع كليا بحسب آليتها المادية وعلاقاتها الاجتماعية .

ان ظاهرة التراكم هذه تمثل أصدق تمثيل واقع التطور العربي . ذلك ان بقاء القديم على قدمه ، تحت طبقات العادات والمفاهيم والسلوكيات الجديدة المستوردة ، بدون اي تفاعل بين النقيضين ، هذه الظاهرة قد افسدت حقيقة التطور ، وجعلته يقع اسير الظواهر الكاذبة التي لا تنبىء عن تغييرات عميقة حقيقية في بنية المجتمع الخفية المستمرة والصامدة بصلابتها والقابعة في المناطق المظلمة من واقع الانسان العربي ، بعيدة عن ضوء الوعي ووضوح الكشف والتحليل .

ان ظاهرة تراكم الأنماط الاجتماعية الجديدة فوق القديمة ، تنطبق كذلك ، وبصفة خاصة ، على اشكال الحياة الاقتصادية . فان نظرة شاملة على واقع الاقتصاد العربي تطلعنا على حقيقة هذا التراكم ما بين اشكال الانتاج والاستهلاك ، منذ عصر الصيد والرعي ، مرورا بنمط الاقتصاد المنزلي ، الى الاقتصاد الحرفي المديني ، الى الاقتصاد الصناعي شبه المركز الحديث حتى عهد ملكيات الدولة . فهذه الانماط موجودة معا ، بالرغم من ان كل نمط منها مرتبط بظروف اجتماعية ، تطور اليها تاريخ الاقتصاد منذ اقدم العصور .

فالتناقضات اليومية التي ينتجها تواجد هذه الاشكال الاقتصادية ، وما

تفرزه من علاقات اجتماعية وانماط سلوكية ، وحقائق اعتقادية ، تؤلف اهم عوامل التخلخل واللاتجانس في الوجود العربي الذاتي ٠

فان العقلية الاجتماعية المصاحبة لاشكال الاقتصاد الابتدائي ، من رعي وزرع أوليين ، وتجارة استهلاك المضروريات ، هي العقلية التي ما تزال سائدة، متغلغلة تحت صور الاقتصاد الحديث ، وما تجلبه معها من تغير في بنية التركيب الاجتماعي ومظاهر الحياة حتى مستويات التفكير ذاتها ٠

ولهذا فان النظام الاقطاعي والعشائري الملازم لاشكال الاقتصاد الابتدائي ، قد امتد هو ذاته والف النظام الرأسمالي الجديد المنبثق في بعض العواصم والمدن ٠ ولم تستطع اشكال الانتاج ونظم التسويق الملازمة لنشوء هذا النظام المختلط ، ان تحدث تغييرا حقيقيا في انماط العلاقات الاجتماعية التقليدية ٠ فان تراكم اشكال الانتاج والاقتصاد وعدم تحولها هو الذي جعل تطور الراسمالية غير مجد ٠ بل لم تحصل صورة بورجوازية ، وبالتالي وقع المزج بين الاقطاع والعشائرية والنظام البداني والرأسمالية ٠ فزاد ذلك من حدة التناقضات اليومية ، واجهض عمليات التطور الموضوعية ، وغطاها دائما بآليات التلفيق الشكلي ، والنفاق الاخلاقي ، والعقم في الابداع، مما سبب هذا العجز عن المواجهة الاجتماعية الصريحة لمشكلات التقدم الحقيقي ٠

فكان لدينا مجتمع سديمي التكوين الاقتصادي والفكري ، يتهرب من مسؤوليات انحلاله ويتواكل في أعماله ، ويفضل الاستغراق في المبالغات الانفعالية ، واستسلام للغيبات السطحية ، والتهويل من شكليات الاخلاق ، والتطهر من العيوب ظاهريا ، وممارسة المفاسد خفية ٠ مجتمع ابعد نصفه عن الحياة ، وحشر المرأة في آليات الوظيفة الغريزية ، واغلق فكره عن المطامح الحضارية التي تشغل اجياله الماضية ، وانكفأ الى اشكال من التعضيات العشائرية والعائلية والاقليمية ليحتمي بها من تهديد بعضه بعضا ٠

وكان من اهم نتائج هذا التراكم غير المتفاعل ان امكانيات الاقتصاد القديم راحت تفترسها انماط الاستهلاك المتعاظمة القدرات مع تزايد الغزو الاقتصادي الجديد ٠ وكذلك فان تحديث الاقتصاد ، اقتصر في الاساس على تنمية حاجات استهلاكية ، راحت تتزايد مع نمو النمط العصري للحياة في المدن الكبيرة خاصة ٠ فلقد استطاع الاحتكاك بالغرب ان ينمي لدى الطبقات الصاعدة اقتصاديا حاجات استهلاكية متعددة ، ارتقت من مستوى الضروريات الى مستوى الكماليات ٠ وبذلك تطور الاقتصاد الجديد في اتجاه تامين هذه

الحاجات ، فغلب عليه الاستهلاك • وحل محل الانتاج الاستيراد الواسع • وحتى حين تمت بعض الصناعات المحلية الاستهلاكية ، فان المزاحمة الاجنبية وضعف التوجيه الرسمي في الدول العربية ، جعل هذه الصناعات لا تتعدى حدود المنسوجات والاغذية • وظل الاقتصاد العربي الحديث اجمالا عند حدود الثورة الصناعية الاولى في الغرب ، التي حدثت منذ اكثر من قرن • وما زال عاجزا عن التلازم مع عصر التكنولوجيا الحديثة الا بعض بدايات بسيطة في مصر ، التي راحت تمهد لقيام الصناعة المركزة والصناعات الكيماوية الحديثة ، والتي لم تتضح نتائجها الاقتصادية والاجتماعية بعد •

وعلى هذا فان الراسمالية الناشئة في المدن ، قد اعتمدت في الدرجة الاولى على تجارة الجملة ، اكثر من اعتمادها على الصناعة الكبيرة • وتطورت رأسمالية الاعمال الحرة الى تنمية برجوازية كبيرة نسبيا ، سارت معها رأسمالية أخرى تابعة لتجارة العقارات والسمسرة والصيرفة • وفي الاقطار العربية ذات الاقتصاد المتقدم نسبيا ، فان طابع اقتصاد المبادلة هو الاساس ، ولذلك فان التوزع الطبقي لم ينم في اتجاه انقسام واضح ، يؤلف بروليتاريا كبيرة محددة ، تقع تحت استغلال صناعة مركزة ، وطبقة برجوازية مستثمرة• وما زالت البروليتاريا الحضارية هي الاغلب على بروليتاريا المجتمع المتقدم • فالكتل الكبيرة من المجتمع العربي ، لا تمت الى تصنيف طبقي صناعي بقدر ما تمت الى تصنيف قائم على اساس التخلف والتقدم عامة • فأن معظم طبقات الهرم الاجتماعي ما زالت غائبة عن مسرح الحياة الجديدة ، ضائعة في بحران التخلف والجمود ، تتابع انماط الحياة من القرون الوسطى بالاضافة الى انماط تخلفها الخاص فكريا واقتصاديا •

ان اقتصار تحديث الاقتصاد على التبادل التجاري القائم على استيراد البضائع وانتاج البضائع الاستهلاكية ، يؤلف اكبر عقبة في وجه الثورة الحضارية التي ما زالت تشوه وتختصر بأشكال من الطفرات ذات المظهر الثوري ، والمحجوز ضمن اطار الصراع على السلطة السياسية ، مع ابقاء أرومة المجتمع كما هي منذ مئات السنين •

وهكذا بقي التركيب البشري الاجتماعي مرتبطا بتراكم اشكال الاقتصاد القديم والحديث في واقعنا الراهن • فان التجمع على اساس عشائري بحت ما زال يغطي مساحة شاسعة من الوطن العربي الكبير ، في الجزيرة العربية ، وصحاري سوريا والعراق ، وليبيا والمغرب العربي • وما زالت اكثر الارياف المتاخمة للمدن خاضعة لأنظمة شبيهة بالاقطاع ، وان تطورت بعض اشكاله

الى ما يشبه راسمالية الانتاج الزراعي احيانا في بعض الاقطار المتطورة . وبقيت التجمعات الطائفية القائمة على اساس العصبية الدينية والمذهبية واحدة من اهم خطوط الانقسام الذاتي ، داخل الاقطار المشرقية خاصة .

والى جانب هذه الجذور العقيدية للانقسام الاجتماعي التقليدي ، فان نمو مظاهر جديدة للحياة العصرية قد اسس تشكلات لا تزال تتكون وتتحدد صيغها المادية والنفسية . وهذه التشكلات ما زالت قاصرة على مجتمعات المدن ، في الاقطار الاقرب الى الصلة بنماذج الحياة العصرية . فلقد تميزت مجتمعات المدن بنمو طبقة كبيرة تستغرق القطاعات الوسطى من هرمها ، وتستقطب شؤون التجارة والعمل الحر والوظائف المكتبية ، ورجال الفكر والصحافة والجيش وهي مجموعات من الفئات العاملة التي تتصاعد من اوسع اطار ، لتتدرج في زيادة الدخل مع تناقض الافراد المنتمين الى مستوياتها كلما اقتربت من البرجوازية الكبيرة العالية . وتأتي تحتها فئات تعيش غالبيتها على الكدح اليومي غير المنظم الا من حيث تعدد المهن او استمرار العمل او اختلاف الدخول . وهي تضطر غالبا الى الالتحاق بفئات البرجوازية الكبيرة لارتباط معاشها بما تقدمه لها من اعمال وخدمات ، مقابل استثمار جهودها . وفي الوقت ذاته تخضع لسلطاتها السياسية ، وتخدعها هذه البرجوازية من حيث ارتباط الكادحين بالعقيدة الدينية ، فتتظاهر امامها بالمحافظة عليها . ثم ان هذه البرجوازية تأتي ثروتها الاساسية من تلك العقارات ، واستثمارها في ظروف تقدم العمران التي تجتاح العالم العربي .

هذه الفئات العاملة لا يمكن تحديدها على اساس طبقي اقتصادي موحد الصورة . ولعل تنوع قطاعاتها ، سواء من حيث اختلاف اداة الكسب ، ومستوى الوعي وآلية الممارسة للمهنة والصنعة ، يجعلها غير متجانسة المصالح بصورة عامة . ولكن هذه الفئات تؤلف في الواقع اهم وسط بشري يستقطب فعالية المجتمع العربي منذ انطلاق نهضته ووصوله الى مراحل الاستقلال الوطني وعهد الثورات العقائدية المعاصرة .

واما الفئات التجارية فقد قادت مع بقايا العائلية والاقطاعية القديمة معارك الاستقلال في طور الاحتلال الاستعماري . وجاءت الفئات الطلابية مع اساتذتها ، لتقود مراحل الانتقال من عهد الاستقلال الوطني الى عهد الثورات التحررية الاجتماعية والقومية . ثم دخلت قطاعات الجيش لتستلم دور القيادة في هذا العهد ، ولتؤلف طبقة جديدة ، تحتكر السلطة السياسية والنفوذ الاجتماعي .

ومع ذلك فقد بقيت اقطار عربية اخرى تابعة لسلطات البرجوازية التجارية الكبيرة متحالفة مع انماط المجتمع القديم من عشائرية واقطاعية وطائفية ٠

وبالمقابل فقد تطورت الكتل الجماهيرية الكبيرة الى انواع من الفئات الكادحة الاقتصادية داخل اطار البروليتاريا الحضارية العامة ٠ فنشأت في الريف المتقدم جماعات الملكيات الصغيرة مع العمال الزراعيين ، والزراعيين الصناعيين ، كما نمت طبقة عمال ثابتة في المدن ، مرتبطة بالمعامل الكبيرة والصغيرة في بعض البلدان ، والى جانبها تموج فئات اخرى غير ثابتة من المحترفين الصغار والكسبة والصناع اليدويين والاجراء٠ وجميع هؤلاء لا تربطهم صيغة معاشية محددة ، من حيث الدخول واشكال العمل ولا تمثلهم هيئات نقابية في اكثر الاقطار ٠ وهم يؤلفون قطاعاً بشريا كبيرا يكون الغالبية العظمى من المدن العربية ، ويؤسس أوسع اطار بشري اجتماعي فعال للوسط الذي تنشأ عنه مناخات الفكر التقدمي ونوازع التغيير الشاملة ٠ والواقع فان اتساع هذا الوسط ونموه يؤلف صيغة خاصة بالمجتمع في المرحلة السابقة على التحول الصناعي الكبير المركز ٠ ولعل اهم ما يميز المجتمع المتخلف هو حالة الليونة وعدم التحديد في التكوين الطبقي ٠ وعدم تبلور الصراع اذ ان هناك الكثرة الساحقة من المجتمع التي لا تزال تحيا في شروط الواقع المتخلف وفوق هذه الكثرة الساحقة ، تنمو الطبقات الوسطى في المدن ، وتؤلف قطاعا من المنتجين ، قاعدتهم اقرب الى شروط الكادحين ، وذروتهم تتداخل مع الفئات الاغنى من كبار التجار والصناعيين ، وبين هذه القاعدة الاوسع والذروة الاضيق ، تتدرج مستويات مختلفة من اصحاب الدخل المحدود ، من الموظفين والحرفيين ، والتجار والكسبة ، الى افراد الجيش ومستويات الضباط ، التي تقابلها مستويات كبار الموظفين في الدولة ٠ حتى كانت الفئة العليا في اكثر مجتمعات المدن العربية هي لكبار الموظفين والضباط ، وخاصة في الاقطار ذات الانظمة التقدمية ٠

ولكن هذا لا يعني ان صراع الطبقات لا وجود له في المجتمعات المتخلفة والمتقدمة ، على العكس ، فان صراع الطبقات قد يفسر الكثير من ظواهر الاستثمار والثورة على الاستثمار ، في بعض القطاعات الصناعية كما هي في بعض الارياف التي ما زالت خاضعة لعبوديات الاقطاع القديم ٠

الا ان نوازع التغيير قد وجدت لها دائما الوسط الملائم في بيئات المدن التي مسها الوعي وادركت البون الشاسع بين واقع مجتمعها المتخلف وبين مستويات الحياة المدنية المعاصرة • وهذه البيئات هي التي تؤلفها الفئات المنتجة وذات الدخل المحدود التي سبق الحديث عنها •

ولقد برهنت احداث التغييرات الاجتماعية والسياسية في شتى الاقطار العربية ان الطبقات الوسطى من ابناء المدن دائما السباقة الى تاسيس الأحزاب والجمعيات والاشتراك في حركات التحرر الوطني وقيادتها • وهو امر طبيعي في مجتمع سديمي البنية ، غير متحدد التبلور على اساس طبقي اقتصادي واضح • ومن هنا كان البحث لدى ابناء هذه الفئات عن الاسلوب الاصح من اجل التغيير الاجتماعي ، وايجاد الحلول لمشكلات التخلف • فكانت الطلائع والاحزاب السياسية تحاول ان توجد الطريق والاداة ، تارة بالكفاح السلبي ، وطورا عن طريق الانقلابات ، واعتماد ايدلوجيات غريبة جاهزة •

فالوسط المتحرك من المجتمع العربي المتخلف تبنيه اذن صيغ متعددة من الفئات الاجتماعية المنتجة ، كالحرفيين والكسبة واصحاب الاعمال الحرة والتجار العاديين ، والطلاب والمثقفين والموظفين والعسكريين ، والفلاحين والملاكين الصغار • وجميع هؤلاء يعتبرون من اصحاب الدخول المحددة ، وهم لا يؤلفون طبقة مستقلة او مستغلة • ولكنهم يملؤون جميع المستويات الوسطى في هرم المجتمع • وفي كل يوم تبعث الكتل الخارجة عن هذا التصنيف ، والمستغرقة في الوجود المتخلف تبعث بدفعات من شبابها لينضم الى احدى هذه الفئات المنتجة •

والآن يمكننا ان نقسم هذه الفئات الوسطى الى قطاعين كبيرين ، فالكسبة والحرفيون وصغار التجار واصحاب المهن الحرة ، يجمعهم قطاع واحد ، يتصف بالانتاج الفردي والدخل المحدد ويقترب من صيغ الحياة الاقتصادية المتراوحة بين القديم والحديث • والقطاع الثاني يتألف من الطلاب والاساتذة وموظفي الدولة والشركات ، والجيش • وهو قطاع غير منتج على الصعيد الاقتصادي المباشر • ولذلك كانت فئاته اقرب الى الصيغة المجردة التي لا ترتبط مصالحها المادية بأي تشكل محدود • ولقد كانت مصالح

هذين القطاعين دائما اقرب الى الارتباط بالمثل الاجتماعية والقومية ومطامح التعبير الحضاري ، الذي يضع حدا لواقع التخلف ، ويكون واقع التقدم واللحاق بنماذج الحياة الحرة العصرية ٠

ولذلك فانّ الحركات التي حملت لواء الدعوات الثورية اخطأت دائما عندما اعتقدت ان تغيير السلطة السياسية وحده يكفي للرد على مطامح التغيير الشمولية نحو التقدم القائم على اعطاء المزيد من مزايا الحرية الانسانية في مجتمع عادل متطور ٠ ولذلك فان هذه الحركات غرقت في صراع الاقتتال على السلطة ، وجعلت من تنظيماتها قوى متسلطة هدفها الاحتفاظ بالحكم بشتى اشكال الديكتاتورية المغلفة ببوارق الشعارات المستعارة والرومانتيكية ٠

ان سلطات المجتمع المتخلف التي تمارس ديكتاتورية الجهل والتحكم الاعمى ، لا يمكن استبدالها بديكتاتوريات الانقلابات السياسية او العسكرية كبديل عن التغيير الحضاري ، الذي تنزع اليه الفئات المتحركة من المجتمع ، المتطلعة الى حياة الانتاج والتكامل الحضاري ٠

ولذلك فلقد افسد طبيعة هذا التحرك الاجتماعي نحو الخلاص من ظروف التخلف ، الادراك السطحي المبتسر لعوامل هذا التحرك وربطها تارة بالنظريات المثالية الجوفاء ، او النظريات الطبقية الملائمة للمجتمعات الصناعية المتقدمة المركزة ٠ فدب الانفصام بين عوامل التحرك الواقعية وبين ادوات تحققه ٠ وانعزلت مجموعات من المثقفين والعسكريين في مجال مجرد عن المصالح الحقيقية للمجتمع ، واستغرقت في مخططات لاستلاب السلطة ، او الدفاع عن نفسها في السلطة ضد مستلبين اخرين ، من نفس أرومتها ومادتها البشرية ٠ واستحكم العداء بين هذه المجموعات فيما بينها داخليا ، وخارجيا مع بقية الفئات المنتجة من المجتمع ٠ وتوقفت بذلك حركة التقدم والنمو ، وانكمشت تيارات التغيير تحت ضغوط الديكتاتوريات الفئوية ، من افراد الطبقة المجردة ٠ واصبحت علاقتها ببقية فئات المجتمع قائمة على الارهاب والخوف المتبادل ٠ واصبح الجسر الوحيد الممتد بينهما ان هو الا جسر النفاق وصور الانتهاز والتبعية للقوى المتنفذة ٠ وتحول النضال الى حبك مؤامرات ودسائس لشراذم ضد شراذم اخرى تبتعد او تقترب من السلطة وفق حركات هوجاء عمياء ، لا تعكس شيئا من آمال الجماهير الحقيقية ٠

نخلص مما تقدم الى ان تحليل الصيغ البشرية والفئوية للمجتمع العربي المتخلف يطلعنا على اعماق القوى والدوافع المحركة لهذا المجتمع والمعيقة لتطوره في الوقت ذاته . ويقدم لنا الارضية الواقعية لاي تصور سليم قادر على اكتشاف طبيعة هذه القوى ، وتمييز الجانب الذي ترتبط مصالحه بالمحافظة على اوضاع التخلف ، والجانب الذي تعلو فيه نوازعه الواعية الى آفاق التغيير الحضارية ، القائمة على الحرية والعدالة . وهذا ما انعكس جليا على واقع السلطات السياسية الحاكمة في الوطن العربي ،